

بين فولتير وروسو

للأستاذ خليل هنداوي

وجوه دامية ، وقلوب خافقة ، وأشلاء ممزقة .
قد ماتوا ! ولم يدركهم مسعف .
ماتوا ! وهم ينظرون الى الموت

أتقولون أيها الفلاسفة ،
وأنتم تسمعون أنينهم وترونيهم وهم يحتضرون :
« إن هذا الا صنع الشرائع الخالدة ،
وإن إلهاً حراً في مشيئته شاء لهم ذلك .
أتقولون : إن الآله قد انتقم لنفسه منهم لأنهم كانوا آثمين ،
وما كان تقتيلهم إلا جزاء آثامهم . فأيّة جريمة أم أي رجس فعل
هؤلاء الأطفال الذين لقوا مصارعهم على صدور أمهاتهم ؟
ليسبونة التي أمست لا شيء ، أكانت أكثر رذائل من
(لوندرة) ومن (باريس) الفارقة في بحر من المذات . ليسبونة
هوت في الهاوية . وباريس لا تزال ترقص .

إن بعض المشاهدين يتأملون في مصيبة إخوانكم
وهم يتحرون عن أسباب العاصفة بهدوء وسلام .
ولكنهم حين يشعرون بضربات الحظ الأعمى تنصب عليهم ،
يتحرك في نفوسهم معنى الانسانية ، ويكون مثلنا على مصارعهم .

آمنوا إني صادق الشكوى واللوعة !
وأن مظالم الحظ شائعة في كل مكان . . .
ذروني أشك !
كل شيء في العالم يئن ، بعضه يفني بعضاً ! .
وكل شيء يولد للموم والأذى .
وأنتم — هنا — تجعلون من شقاء كل موجود سعادة مطلقة ،
فأيّة سعادة أسندوها اليك أيها الانسان الذي يكتنفه الموت
والضعف والشقاء . . . ؟

أنتم تصيحون هاتفين « ليس على سطحها إلا الخير ! »
الوجود يكذبكم ، وقلوبكم تدحض أراءكم !
وهذه عناصر المادة ، حيوانها وإنسانها وجمادها ، كل في نزاع
مستمر ! . . .

يجب أن تقولوا معي « ليس على سطحها إلا الشر »

طوّح بليسبونة زلزال روع النفوس وذهب بكثير من
الضحايا ، فراع فولتير — وهو رسول العطف — أن تعتمد
العناية الآلهية الى مثل هذه الوسائل في إعلان الشر ، فهاجم ربوع
القائلين بنظرية الخير الشامل ، وأين هو الخير ؟ ونظم هذه المقطوعة
يرثي بها من نكبتهم الزلزال ، ويتخذ منه برهاناً يؤيده في جحوده
العناية الآلهية ، ويرى أن الوجود مبني على الشر والعذاب .
وأجابه روسو على مقطوعته برسالة فلسفية عميقة ينكر عليه هذا
الاسراف في التشاؤم ، وهذا الاستسلام الأعمى لسلطان العاطفة ،
ويظهر فلسفة الرضا عن الوجود وعن أنظمتها برغم ما يشيع في بعضها
من فساد ، ويعتقد أن هذا الكون هو خير ما أبدعته فكرة
المبدع « إذ ليس في الامكان أبدع مما كان »
وهذه هي المقطوعة :

« أيها الأموات التغساء ! أيتها الأرض الخاشعة !

أنتم يا من قد فتكم قواذف لا معنى لوقعها .
وأنتم أيها الفلاسفة الذين تصيحون في الأرض « ليس على
الأرض إلا الخير

تعالوا معي واهرعوا الى هذه الخرائب الدامية ، هذه البقايا الهاوية ،
أنظروا الرماد الحائل ، وهؤلاء النساء والأطفال يتهاوى
بعضهم على بعض مهشمى الأعضاء تحت الحجارة ، وهناك ألوف
الضحايا التهمت الأرض .

يلقون منك التبر في جوف الثرى واللؤلؤ المشفوف في الأصداف
ويرون فيك التعميمات وليتهم جازوك غير الكفر والاحجاف
صنّغ الأجانب في ربوع الشرق من فرط الجحود وقلة الانصاف !

غفر (منوف) إذا هجرتك حقبة وحرمت روعة حسنك الشفاف
سأزج عن قلبي تباريح النوى وأحط عبء البعد عن أكتاف

فربم عين شوك

الحر الكامل والانسان الفاسد . وأما الشقاء المادى فاذا صح ما أشعر به فان بين المادة الحساسة والمادة الجامدة الميتة نزاعاً مستمراً ، فهذا الشقاء وجوده محتم في كل جزء يتصل به الانسان . واذ ذاك يصبح سؤالنا « لماذا لم يخلق الانسان سعيداً » لغواً لا معنى له . وانما يسأل « لماذا وجد الانسان » ؟ وأقول : إن كل مصائبنا — ماعدا الموت — إنما نوطن لها بأسباب تتقدمها ، وجل مصائبنا المادية تجنبها علينا أيدينا ، عد إلى موضوع قصيدتك نفسها ، وهب أن الطبيعة لم ترفع هنالك عشرين ألف منزل بطبقات مختلفات ، وأن سكان هذه المنازل قد توزعوا فرقاً فرقا في مساكن حقيرة ، أفليست النكبة تكون أهون شراً إذا كان لامفر من النكبة ؟

ولكى يتسنى لنا العودة إلى المذهب الذى ضربته ، فلا غنى لنا حال تجربيه وامتحانه عن أن نميز الألم الخاص الذى لا ينفى وجوده فيلسوف من الألم العام الذى ينفى وجود التفاؤل . ولا ينبغي هنالك أن يسأل أحدنا الآخر : أذقت المأأ أنت أم لم تذق ؟ وأنا ينبغي أن نفهم إذا كان الوجود بنى على أساس الخير ، أو إذا كانت آلامنا فيه محتمة لا محيص عنها ؟

وهكذا أرى قولنا « مجموع الكل هو خير » أدنى إلى الحقيقة من قولنا « كل شيء هو خير » وإذا ذاك لا سبيل لأحد أن يأتى ببراهين لأثبت شيء أو لدفع شيء . لأن هذه البراهين تتعلق رأساً بمعرفة عمارة الكون والاطلاع على غاية خالقها ، وهذه المعرفة يبعد على العقل البشرى أن يُلم بها ، والقواعد الصحيحة لمذهب التفاؤل لا تستمد من متاع المادة ولا من ميكانيكية العالم ، ولكنها تستمد بواسطة العقل من كمالات الله التى يدبر بها كل شيء . اذا عدت بهذه الأسئلة المتباينة الى مصدرها الشامل رأيتها كلها تعود الى مسألة وجود الله ، فاذا ثبت وجود الله فلا بد أن يكون كاملاً ، واذا كان كاملاً فلا بد أن يكون عاقلاً وقديراً وعادلاً ، واذا كان عادلاً وقديراً فكل شيء مبنى على خير وصلاح ، وإذا كان عادلاً وقديراً فروحى هى خالدة ، واذا كانت روحى خالدة فان ثلاثين عاماً من عمرى لا توازى شيئاً عندي ، وربما كانت ضرورية لانقاذ الكون . فاذا ما سلمت لى بالقضية الأولى فلم تتزعزع هذه النتائج التى وقفها عليها ، وإذا لم تسلم بها وكان نصيبها منك الجحود فان كل مجادلة فى توابعها تذهب عبثاً ما

إن سر الوجود لا يزال مجهولاً . . .

فهل يصدر هذا الشر عن مصدر صاحب الخير نفسه ؟ ولكن كيف يُدرك الفكر أن رباً يزجى الى أبنائه الخير الذى يرتضيه لهم ، هو بذاته يصب عليهم سوط عذابه ؟ أية عين تستطيع أن تتبين فى هذه الاغوار العميقة ؟ . لا يمكن أن يكون مصدر الشر كله من الوجود .

والشر لن يرسله أحد غير الله ، لأنه هو سيد الوجود وهو الكائن فى كل موجود .

يا لها من حقائق مؤلمة ! . . .

ويا له من مزيج لعناصر متباينة ! . . .

وهذه هى الرسالة التى كتبها روسو جواباً على هذه المقطوعة :

« اسمح لى أيها العزيز بأن أشكو اليك من هذه العقيدة ، إذ كنت أرتقب منك ماهو خير وأهدى لهذه الانسانية التى تريد منك أن تنفس عنها . أنت تلوم (بوب) ^(١) و (لينتز) ^(٢) لأنهما خففا عن الانسانية عذابها بإعلانهما (أن لا شيء عليها إلا الخير) ورحت ترينا شقاءنا وتهدينا الى تعسنا ، تدفعك الى هذا عاطفتك الموهجاء ؛ وبدلاً من أن تكون رسول تعزية لى لم تعمل إلا على إثارة حزنى . قد يقال إنك تخشى أنى لا أرى مبلغ شقائى فى هذا الوجود ، وأنتك إذا تركتنى أسىء الظن بالكون تخفف عنى شقائى .

قال لى (بوب ولينتز) : صبراً أيها الانسان فان الألم شيء ضرورى فى الطبيعة والوجود ، فان الموجد الخالد المحسن الذى يحكم هذا العالم ود أن يعصمك فيه عن كثير من الأنظمة المطلقة ، فانتخب نظاماً هو أصلح الأنظمة وأقلها شراً وأكثرها خيراً ، فلماذا المكابرة ؟ لنقل هذه الكلمة وان كانت قاسية : « إذا لم يصنع إله الكون خيراً مما صنع ، فلأنه لا يقدر على أن يصنع خيراً منه » وأنت ماذا تقول لى فى قصيدتك ؟ تقول : تألم إلى الأبد أيها الشقى ، فاذا كان — تمت — خالق أوجدك فهو قادر بدون شك على أن يزحزح عنك آلامك ويطلق نفسك من قيودها . ولكن لا رج من آلامك أن تزحزح ، لأن من المحال أن تعرف لماذا وجدت إذا لم توجد للألم والموت .

إننى لأرانى أتحرى عن أسباب الشقاء الأدبى فى الانسان

(١) بوب : (١٦٨٨ — ١٧٤١) شاعر انجليزى مذهب التفاؤل

(٢) لينتز : (١٦٤٦ — ١٧١٦) فيلسوف ألماني نشر مذهب التفاؤل